



سِمَات الشَخصِيَة الأزهَرِيةُ

بقلم | عماد الدين صلاح الأزهري

سمات الشخصية الأزهرية

إنَّ المناهج العلمية الرصينة المنضبطة التي تخرَّج بها أبناء الأزهر الشريف كفيلة بأن تصنع شخصيَّة متميِّزة فريدة، لها سماتها الواضحة، وتوجهاتها السديدة، وغاياتها الخاصَّة، تلك التي تميِّزها عن غيرها من الشخصيات الأخرى التي لم تنل حظا من دراسة هذه المناهج العلمية التربوية المباركة ومن ثم كان الغوص في أعماق الشخصية الأزهرية ضروريا؛ لنتعرف على أبرز سماتها وأخص مكوناتها ونظهر في جلاء السر الكامن وراء هذا التفرد والتميز الذي تتمتع به؛ ولتكون لنا قدوة نتبعها ومثالا نحتذيه ولعل الله سبحانه وتعالى يجعل من هذه الكلمة نواةً لدراسة عميقة متخصصة تكشف عن أبعاد النفس الأزهرية الأخَّاذة، فليس بخاف على ذي لب أن المعرفة والثقافة تعملان في النفس عمل السحر فكيف إذا ضم إليهما التربية الروحية والتزكية النفسية وهذا بعينه هو البناء الأزهري الشامخ الذي جمع بين العلم والمعرفة والهداية فخرَّج لنا العالم العابد الداعية صاحبَ السمت الوقور والعلمِ الغزير والعقل المستنير المدرك لواقعه المستشرف لحاضره من ماضيه، فالمتأمل في شخصية العالم الأزهري يقِف على ما لا يكاد يحصر من الميزات والخصائص التي خصه الله بها، لذلك سأذكر في هذه العجالة ما لاح لي في الأفق، وظهر وبان لي عند أول تأمل ونظر، آملا من الله تعالى أن يمن علينا بدراسة عميقة متخصصة حول هذا الموضوع المهم، فأقول مستعينا بالله:

لقد حبى الله تعالى الإنسان المسلم بما يجعله شامة في الخلق، رائدا للحق، ثم أقام الله تعالى علماء الدين حجة على الناس؛ فزكاهم وطهرهم، وجعلهم للأنبياء وراثا، ولبناء الدين أساسا، وكان من فضل الله تعالى على مصر وأهلها أن أقام بين ظهرانيهم أكبر وأقدم جامعة إسلامية بل عالمية، فتخرج فيها علماءُ مصلحون ظهرت بوادر سماتهم في عميق تصرفاتهم، فتجد الرحمة بالخلق، والشدة في الحق، ثم هو مع ذلك صاحب تفكير عميق وتأمل دقيق، يتمتع بعقلية فارقة ونفس مشرقة تقبل الاختلاف وتؤمن بسنة الله فيه، قادرة على التعايش والتكيف في شموخ واعتزاز بربها ودينها، وتواضع شديد وخضوع لخالقها ومنشئها، ثم هو موسوعي المعرفة، مطَّلع على سائر الثقافات، دائم النشاط لا يصيبه الكسل ولا يعرف الإحباط،عاشق لوطنه يبذل النفس والنفيس في سبيل إعلاء شأنه، مرح بشوش سهل صاحب فكاهة جميلة لا كذب فيها ولا اختلاق، وسوف أتناول هذه السماتِ بالشرح والتحليل على قدر الطاقة والله الموفق.

السمة الأولى: الأزهري شديد الرفق بالخلق والرحمة بهم.

المتتبع لتراجم الأزهريين - والتي نرجو من الله تعالى أن تجمع في كتاب - يشاهد بوضوح وجلاء هذه الرحمة التي سرت في كيانهم، وبرزت في أقوالهم وأفعالهم، كيف لا وأول ما يتلقى الطالب الأزهري في الدرس ما رواه الإمام الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ، الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّه وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّه﴾ هذا الحديث الشريف الذي يشكل اللبنة الأولى في بنائه يسمى بحديث الرحمة، ويسمونه أيضا حديث الأولية؛ لأنه أول حديث يطرق سمع الطالب من شيخه، فهو أول غَرْس غُرِس في نفسه وهو في طور النشأة ثم تتوالى عليه الآيات والأحاديث والسنن والمواقف النبوية الكريمة التي تؤكد على هذا المعنى، فكأني به يلقى في بحر الرحمة فلا يخرج منه أبدا إلى أن يلقى ربه الرحمن الرحيم.

السمة الثانية: الأزهري آية في الاعتزاز بدينه والشموخ بعقيدته.

لا يخفى على أحد أن علماء الأزهر كانوا أرباب المواقف الحرة النبيلة التي دافعوا فيها عن مبادئهم ودينهم ووطنهم، وكتب التاريخ حافلة بهذه المواقف فهذا سيدي الإمام الشيخ أحمد بن أحمد بن أبي حامد العَدوي المالكي الأزهري الخَلْوَتي، الشهير بأحمد الدردير (المتوفى سنة ١٢٠١ هجرية) كان رحمه الله صوفيا زاهدا، قوّالا للحق، زجارا للخلق عن المنكرات والمعاصي، لا يهاب واليًا ولا سلطانًا ولا وجيهًا من الناس، وكان سليم الباطن مهذب النفس كريم الأخلاق، ومن أشهر مواقفه المشهودة التي تواتر الخبر بها موقفه مع أحد الولاة العثمانيين، والذي أراد فور تعيينه أن يكون الأزهر هو أولَ مكان يزوره حتى يستميل المشايخ لعلمه بقدرتهم على تحريك ثورة الجماهير في أي وقت شاءوا وعند حدوث أول مظلمة، فلمَّا دخل ورأى الإمام الدردير جالسًا مادًّا قدميه في الجامع الأزهر وهو يقرأ وِردَهُ من القرآن غضب؛ لأنه لم يقم لاستقباله والترحيب به، وقام أحد حاشيته بتهدئة خاطره بأن قال له: إنه مسكين ضعيف العقل ولا يفهم إلا في كتبه يا مولانا الوالي. فأرسل إليه الوالي صرة نقود مع أحد الأرقاء فرفض الشيخ الدردير قبولها وقال للعبد «قل لسيدك من مدَّ رجليه لا يمكن له أن يَمُدَّ يديه» فكان الشيخ قدوة في الحال والمقال رحمه الله تعالى.

السمة الثالثة: الأزهري صاحب فكر عميق ونظر دقيق.

انطلق الأزهري من القرآن بعدما أتقنه حفظا وقراءة، ثم درس النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والوضع، ثم علم المنطق وعلم

الأصول؛ ليفهم النص ويفرق بين دلالاته ومفاهيمه، ويغوص في معانيه فضلا عن الطرق والمسالك التي اكتسبها من مشايخه في حلَق التعليم، وترى هذا جليًّا واضحًا في متونهم وشروحهم وحواشيهم تقريرًا وتحريرًا وتحقيقًا وتدقيقًا، فتراهم ينفُرون من الفَهم السطحي الأعرج، ويَعُدونه آفة إن سرت في كِيان المجتمع المسلم أهلكته وجنت عليه، فلا يعتمدونه طريقا حسنا للتعامل مع النص ولا مسلكا صحيحا لفهمه.

السمة الرابعة: يتمتع الأزهري بعقلية فارقة.

قال أهل العلم: العلم جمع وفرق، جمع لما يظنه الناس مفرقا، وفرق لما يظنه الناس مجموعا هكذا صيغت عقلية الأزهري العقلية التي تفرق بين المحكم والمتشابه، وبين الكل والكلي، والجزء والجزئي، وبين دلالة المطابقة والتضمن واللزوم، وبين اللزوم الخارجي والذهني، وبين البَيِّن منه وغير البين، وبين الحمد والمدح والشكر... وهكذا، وذلك بمعرفة الفروق والتباينات بين الأمور المتشابهة، وتجمع بين القواعد الكلية والضوابط والأشباه والنظائر، وذلك بضبط الوشائج التي تجمع بين المتفرقات، فالجمع يعطينا النظرة الكلية الاستقرائية التي تتعامل مع الموضوع كوحدة وبناء، أما الفرق فهو التدقيق في التفاصيل والتركيز على الخصائص الفردية التي تميز العناصر داخل هذه الوَحدة، وهكذا يعمل عقل الأزهري من غير خلط ولا خبط.

السمة الخامسة: يؤمن العالم الأزهري بسنة الله في الاختلاف.

نشأ الأزهري في بيئة تؤمن بالاختلاف وقَبول الرأي الآخر، بل تمارسه وتحياه وتنظمه، فترى الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي -وكلهم أبناء الأزهر الشريف- يدرسون في صَحنه ويترددون بين أروقته، ويؤمنون بأن الله تعالى خلق العباد وشأنهم الاختلاف، فأرادوا أن يجعلوا منه اختلاف تنوع وتكامل لا اختلاف تضاد وصدام، مؤمنين بضرورة التعايش مع الآخر تعايشا يهدف إلى المشاركة العميقة والحقيقية والفعالة في سائر المجالات المختلفة من الحياة، لا مجرد التجاور وعدم التعدي فحسب وذلك انطلاقا من قول الحق سبحانه ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾«هود/١١٨» ولقد كان لهذا الإيمان أثره البالغ في تصرفاتهم، فهذا شيخ الإسلام والمسلمين إبراهيم بن محمد الباجوري (المتوفى سنة ١٢٧٦هـ) يضرب أروع الأمثلة في قبول الآخر والتعايش معه فلقد سجل التاريخ أن حاكم مصر عباس حلمي الأول كان شديد النقمة على النصارى، وأخرج معظمهم من خدمة الحكومة، وأصابهم بألوان من الأذى والاضطهاد، وقد خطر له أن يخرجهم من مصر ويبعدهم إلى السودان، وعندما أراد استصدار فتوى من الأزهر

بجواز ذلك استدعى الشيخ الباجوري شيخ الجامع الأزهر يومئذ وسأله في ذلك وكان رد الشيخ الباجوري هو رفضَ رغبة الوالي قائلا: «إذا كان يعني الذميين الذين هم من أهل البلاد، فالحمد لله لم يطرأ على ملة الإسلام طارئ، ولم يستول عليها خلل، وهم في ذمته إلى اليوم الآخر»[1].فانظر إلى هذا الكلام المنير واقض منه العجب، وقل في نفسك كيف كان يفكر الباجوري، وما هذا العمق العجيب لفَهم الدين، فإنه ربط بين عزة الإسلام ومَنَعته، وبين بقاء الذميين في مصر!!! بحيث جعل خروجهم منها دليلا على خلل يصيب ذمة الدين، وحاشاه أن يصاب بخلل، فبقاء أهل الذمة في أوطاننا دليل على عزة ديننا ومَنَعته، وانظر متأملا قوله: إذا كان يعني الذميين الذين هم من أهل البلاد. فجعلهم أهلًا في بلد واحد، فرحم الله الإمام الباجوري وأحسن الله إليه كما أحسن فَهم دينه.

السمة السادسة: الأزهري واسع المعرفة مطلع على ثقافات الآخرين.

من أخص سمات الأزهري أنه موسوعي مطلع، ونماذج الأزهريين أصحاب الاطلاع الواسع لا تكاد تحصر، فمنهم على سبيل المثال العلامة الشيخ الإمام أحمد بن عبدالمنعم صيام الدمنهوري المذاهبي شيخ الإسلام والمسلمين (المتوفى سنة ١١٩٢ هجرية) كان رحمه الله فذًّا بين علماء عصره فقد كانت ثقافته الدينية واللغوية عميقة كما هي عادة الأزهريين، كما كان دارسا متضلعا من العلوم الرياضية والهندسة والفلك والطب والفلسفة، يقول عن نفسه رحمه الله: أخذت عن أستاذنا الشيخ علي الزعتري خاتمة العارفين بعلم الحساب واستخراج المجهولات، وما توقف عليها كالفرائض والميقات، وقد أخذت عنه وسيلة ابن الهائم ومعونته في الحساب والمقنع لابن الهائم أيضا ومنظومة الياسمين في الجبر والمقابلة، والمنحرفات للسبط المارديني في وضع المزاول، وبعضا من قانون ابن سينا[2]... إلى آخر ما قال رحمه الله .

ومنهم العلامة الشيخ أبو البركات محمد زكي الدين إبراهيم المتوفى سنة ١٤١٩ هـ ، وقد تعلم الشيخ الإنجليزية في المرحلة الابتدائية، وتعلم الفرنسية على يد الأستاذ داود سليمان من أعيان أسيوط، والألمانية بالقاهرة على يد الأستاذ راغب والي، وكان مدرسًا بالمدرسة الألمانية بالقاهرة، وقد ترجم الشيخ بعض قصائد الشاعر

١- «مواطنون» للأستاذ فهمي هويدي (ص: ١١٦).

٢ - «الأزهر الشريف في ضوء سيرة أعلامه الأجلاء رؤية فنية تاريخية» للأستاذ عبد الله سلامة نصر(ص: ٦٢).

الألماني هايني رش هايني من الألمانية إلى العربية، وتعلم الفارسية على يد الشيخ محمد الأعظمي الإيراني عضو جمعية الأخوة الإسلامية وقال عن نفسه: «كتب إليَّ كاتب، يعنفني بأنني أحبس نفسي في قمقم التصوف، وأتقوقع في صدفة التدين المتأخر، وأعيش متخلفًا في عصور الجمود الماضية، بينما نحن في عصر تقدمي متحضر لم تعرفه دنيانا من قبل ...إلخ، والذي أحب أن يعرفه هذا الأخ وأمثاله، أنني وأنا رجل معمَّم مقفطن لا أزال أثقف نفسي، وأزودها بكل ثقافة من المشرق أو المغرب، باحثًا عن الحكمة، جاريًا وراء الحقيقة، كلما أذنت لي صحتي وأوقاتي وقدرتي. فكما أقرأ تاريخ الإسلام والفلسفة وتدرج المذاهب، ونشوء الفرق والنحل، وأتابع الصوفية والسلفية، وتطور تاريخ المسلمين، وأتابع أدباء العرب وقصاصيه وناقديه ومهرجيه ومفسديه. كذلك أدرس ملامح الفن القوطي وتدرجه إلى الريسانس، إلى الكلاسيكية القديمة فالجديدة، إلى الرومانتيكية، إلى التأثرية، إلى الواقعية، إلى الرمزية، إلى الالتزامية، إلى التجريدية، حتى بيكاسو في التصوير، وأندريه في الأدب، واسترافنسكي في الموسيقى !!! .وأنا أقرأ لشكسبير، وبوب، وشيلي، وبيكون، وهيجل، وفلامريون، وجيته، ونيتشه، إلى سارتر، وسومرست موم، وبرتراند رسل، وأقرأ كذلك رونسار، وفارلين، ورامبو، وبودلير، وأفرق بين لوحات جنيسبورو، ورينو لدزر، وأميز في مدارس الموسيقى بين صامويل جونسون، وبوالوا، إلى كل ما يتعلق بفن المسرح والسينما...إلخ .

فلست بمقمقم ولا مقوقع ولا جامد، ولا متخلف بحمد الله، إنني أعيش في عصري مندمجًا فيه ثقافة ودعوة ومعاشًا، غريب عنه أخلاقًا وعبادة واتجاهًا، ولكن على قدر مقدور لا بد منه للدعاة إلى الله[٣]. انتهى كلامه رحمه الله، ولا مزيد على هذا الكلام إلا التوجه إلى الله تعالى أن يرحم من قضى من علماء الأزهر الشريف، وأن يبارك في حيهم وأن يتجاوز عن تقصيرنا في حقهم، وأن يحشرنا معهم ويجعلنا منهم ويرزقنا الإخلاص في القول والعمل، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٣- «أسانيد المصريين جمهرة في المتأخرين من علماء مصر ومناهجهم وبيان سلاسل أسانيدهم وذكر أسانيدنا إليهم» لفضيلة الشيخ أسامة السيد محمود الأزهري (ص: ٤٤٠ و٤٤١).